مقدمة :

تعرّض تاريخ الدولة العثمانية ومازال لهجوم الكثير من المؤرخين والمفكرين بشتى انتماءاتهم وتوجهاتهم وبشكل يمكن وصفه بالخروج على الموضوعية والحيدة ، الأمر الذى استوجب بالتالي إعادة النظر في كافة جوانبه وهو ما يحاوله بعض المؤرخين والمفكرين من أصحاب المنظور الإسلامي ، وغيرهم من الذين ينتهجون نهجاً موضوعياً في الشرق والغرب علي السواء .

فقد هاجم الكتّاب الأوربيون تاريخ الدولة العثمانية لعدة عوامل أولها أن الدولة العثمانية قد نجحت منذ البداية في إسقاط الإمبراطورية البيزنطية الأرثوذكسية وحوّلت عاصمتها القسطنطينية - التي كانت مصدراً من أهم مصادر حملات العداء علي العالم الإسلامي - إلى عاصمة إسلامية هي (إسلامبول) أي دار الإسلام ، تحوّلت هذه العاصمة فأصبحت مصدر حملات جهاد لنشر الدعوة الإسلامية في ربوع أوربا التي لم تكن تعرف عن الإسلام أية معلومات من قبل سوى من المغامرين الأوربيين الذين شوّهوا صورة الإسلام فى نظر العامة فى أوروبا منذ الحروب الصليبية ، تلك الصورة التى مازالت تشكّل أساساً فى البناء الثقافى لعقلية الأوربيين عن الإسلام حتى تاريخنا المعاصر.

وبشكل عام فإن قيام الدولة العثمانية وتطورها كان فى نظر الأوربيين تعبيراً عن الفشل التاريخى لموجات الحروب الصليبية ونجاحا لرد الفعل الإسلامى فى الرد على هذه الموجات العدائية التى شنتها أوربا على المشرق الإسلامى.

وفى أعقاب انهيار الدولة العثمانية وتمزّق المشرق الإسلامى إلى كيانات ودول قومية تركية وعربية وغير ذلك تعرّض تاريخ الفترة التاريخية العثمانية لموجات هجوم من قبل الكتّاب القوميين فى هذه الكيانات أو الدول سواء الذين شاركوا فى الدعوة إلى القومية

العربية أو التركية بشكل عام أو الذين دعوا إلى القوميات المحلية فى حدود دولهم فى محاولة لأن يصبغوا دور البطولة على صناع الاستقلال القومى أو على شعوبهم بجذورها القومية معتبرين فترة ارتباطهم بالدولة العثمانية احتلالاً أو استعماراً ، وأن هذه الفترة هى التى أسهمت فى تأخرهم عن الركب الحضارى ، وحتى يبعدوا هذه التهمة بالتخلف عن عوامل مرتبطة بوجودهم فى الداخل أو فى طبيعة شعوبهم .

وحتى الكيانات أو الدول التى نشأت علي أسس إسلامية في إطار قومي كالدولة السعودية التى ارتبط وجودها بالدعوة الوهابية التى دعا إليها الشيخ محمد بن عبد الوهاب ، فقد نظر بعض مؤرّخيها إلى الفترة العثمانية نظرة هجومية بحكم مناصبة الدولة العثمانية العداء لهذه الدعوة منذ البداية ، وإن كانت هذه النظرة قد اقتصرت في نظر السلفيين الوهابيين على مهاجمة الحكام العثمانيين الذين غلّبوا المصالح السياسية والقومية على التوجهات الإسلامية ، والذين أسهموا فى الضعف الذى جعل هذه الدولة جزءاً من القوى الاستعمارية ، وكذلك هاجموا من منطلق مذهبي التصوف وأتباع الطرق الصوفية الذي شكل طبيعة إسلام العثمانيين ، لكنهم لم يهاجموا دور هذه الدولة تاريخياً باعتبارها دولة إسلامية أعادت القوة والفتوة للوجود الإسلامى عبر فترات تاريخية طويلة

بل إن تاريخ الدولة العثمانية قد تعرّض للهجوم من قبل المؤرخين والمفكرين الأتراك أنفسهم بعد تحوّل تركيا إلى دولة علمانية قومية فى عصر كمال أتاتورك في أعقاب الحرب العالمية الأولى ، فقد حاول هؤلاء المؤرخون والمفكرون الأتراك أن يسندوا كل ما هو مضيئ إلى الاتجاه العلمانى الذي تبناه أتاتورك وحمّلوا الماضى ببعده الإسلامى الذى قاده الخلفاء العثمانيون كل أسباب التخلف والجمود وغير ذلك ، وهى طبيعة كل نظام جديد فى القاء

كل السلبيات على الأنظمة السابقة من جهة ، ومساعى العلمانيين فى دوام الإساءة للدور الإسلامى – والدينى بشكل عام – من منطلق أيديولوجي من جهة أخرى .

ومن الطبيعى أن يهاجم كثير من المؤرّخين والكتّاب اليهود الدور التاريخى للدولة العثمانية سواء ارتبط ذلك بأهدافهم العامة فى دفع عجلة التمزّق القومى على الساحة الأوربية للشعوب المسيحية ثم جرّها إلى الحروب ودفع نفس العجلة بعد ذلك على الشعوب الإسلامية والوصول بها إلى نفس النتيجة ، ثم تحريك العداء بين أتباع الديانتين أو بسبب دور الدولة العثمانية فى متابعة المخططات اليهودية المدعومة بالدور العدائى الأوربى للدخول إلى فلسطين والمعارضة فى إقامة كيان سياسى يهودى فيها .

وبنظرة عامة يمكن القول بأن الكثير من السياسيين اليهود بكل منظماتهم لم ينجحوا فى تحقيق أهدافهم على حساب الدولة العثمانية وهى فى أشد فتراتها ضعفاً ولكن فى ظل تمسكها بالطابع الإسلامى ، فى حين نجحوا فى تحقيق كل هذه الأطماع فى ظل الكيانات القومية التركية التي تمثلت في جماعة الاتحاد والترقي التى أصبغت على نفسها صفات التقدم والحداثة والنهضة وغير ذلك ، وكذلك الكيانات السياسية القومية العربية.

كما تلتقى توجّهات هؤلاء السياسيين من اليهود مع توجّهات الاستعماريين الأوربيين ودعاة العلمانية أو ربما هى وراءها فى الإساءة إلى تاريخ الفترة العثمانية باعتبارها مرحلة انتقال بين الدولة الإسلامية الموحدة التي حددوها بالفترة المملوكية التي كانت نهاية الخلافة العباسية وبين الفترة الحديثة التي تبدأ بالدول والكيانات القومية الحديثة في القرن التاسع عشركتبرير لقيام هذه الدول و الكيانات فى محاولة للتأكيد على ضعف الأيديولوجية الإسلامية التى قامت على أساسها الدول الموحدة السابقة ، وعدم

صلاحية هذه الأيديولوجية للعصر الحديث ، وحتى ينسلخ المسلمون عنها ولا يفكروا في استعادتها أو إحيائها ويتجهوا إلى الأخذ من الحضارة الحديثة فى أوربا فيفقدوا سرّ قوتهم ويسيروا فى فلك التبعية لغيرهم .

ولا شك أن نزعات الهجوم الشاملة علي التاريخ العثماني قد أفرزت كتابات متحيّزة وغير موضوعية تحتاج إلى مراجعة وتحليل وإعادة نظر من خلال محاولات منصفة ومحايدة . وأول ما ينبغى مراعاته فى هذه النظرة- من وجهة نظر إسلامية وتاريخية – أن الدولة العثمانية تمثّل أبرز مراحل تجدد المد الإسلامى ، بعد أن توقفت هذه المراحل لفترة زمنية ، فقد تمكنت هذه المرحلة العثمانية من أن تصل بالدعوة الإسلامية إلى ربوع أوربا التى لم تكن تعرف شيئا عن الإسلام ، فعرفها المزارع والصانع وغيرهم من عامة أوربا ،وفى إطار الالتزام بمبادئ هذه الدعوة فى عدم الإكراه على اعتناق الإسلام ، فأفرزت فى قرابة ستة قرون عدداً ممن دعتهم قناعاتهم- أو ظروفهم – لاعتناق الإسلام ، فى حين ظل الكثير على ديانته، بل وعدائه للإسلام ، يعيش فى كنف الدولة الإسلامية العثمانية دون أن يتعرضوا لأذى أو تهجير ، فالصرب والكروات واليونان والبلغاروالمجريون والتشيك والسلاف والجرمان وغيرهم من الأجناس والمذاهب عاشوا فى كنف هذه الدولة الإسلامية ووجدوا فيها الأمن والأمان ، ووجدت مصالحهم وحياتهم ووجودهم بشكل عام حماية فى مبادئ الشريعة الإسلامية التى التزم بها نظام هذه الدولة في الغالب لفترة تاريخية طويلة ولعل وجودهم التاريخى على الساحة الأوربية الآن يعد من أهم الدلالات التاريخية على السماحة التى حوتها مبادئ الشريعة الإسلامية التى طبقتها الدولة العثمانية فى أغلب فترات وجودها ، كما أن ما ترتكبه هذه الأجناس ضد القوى الإسلامية على الساحة الأوربية فى البوسنة والهرسك وألبانيا وكوسوفوعلى سبيل المثال من قتل واغتيال

واغتصاب فى أواخر القرن العشرين (الخامس عشر الهجرى) والذى يدّعون أنه عصر التحضر، يعد دليلاً تاريخياً على الفارق بين مبادئ الدعوة الإسلامية وبين مبادئ دعاة التحضر الأوربيين بكل جذوره الدينية والتاريخية والحضارية.

والنقطة الثانية التى يجب مراعاتها فى إعادة النظر لتاريخ الدولة العثمانية وهي تخص أصحاب النظرة الإسلامية قبل غيرهم ، هى أن ما ينعم به المشرق العربى الإسلامى حتى الآن من توفر مقوّمات التلاقى والتوحّد بين دوله وشعوبه من وحدة الأرض واللغة والدين يرجع فى جانب كبير منه إلى الدور التاريخي للدولة العثمانية الذى نجح فى حماية هذا المشرق من موجات العداء التى كانت تقصد ضرب هذه المقومات وإنهائها وتفتيت الوجود الإسلامى في مطلع العصور الحديثة ، وما أصاب الدولة العثمانية من ضعف عبر مراحل التاريخ يرجع فى أساسه ، أو فى جانب كبيرمنه ، إلى مواصلة مقاومتها لهجوم الاستعمار الروسى فى الشمال ، والأوربى فى الغرب ، وكلاهما كان مدفوعاً بالعوامل الدينية قبل غيرها من العوامل السياسية أو الاقتصادية ، وبسبب هذا الدور تحملت هذه الدولة الكثير من الأعباء الاقتصادية التى أجبرتهاعلى ضعف محاولات الإصلاح الداخلى فيها فنالت المذمة من الكتّاب والمؤرّخين الذين لم يقدّروا لها هذا الدور وبسبب هذا الدور الذي ظلت تواصل تحمّله حتى انتابها الضعف الشامل فعرفت فى الفترة الأخيرة من وجودها التاريخى برجل أوربا المريض وغير ذلك من مصطلحات الهجوم والتجني .

وبشكل عام فإنه لولا نشوء هذه الدولة تاريخياً- وهذا افتراض بعيد عن مجال البحث التاريخى- لقدّر لهذا المشرق أن يتعرض لأبشع موجة كره وتعصب ربما اقتلعته من جذوره

لكن هذا الظهور الفتى للعثمانيين ساعد في الحفاظ على هوية المشرق الإسلامى دينياً وسياسياً ، بل وربما علي جوهر الوجود الإسلامى بأسره ، على الساحة التاريخية .

أو أن الدور العثمانى قد أجّل - لأربع قرون - موجة الهجوم الغربى الاستعمارى المصاحب والمدعوم بالتطلعات اليهودية المعادية على المشرق الإسلامى ليعودوا بعدها ليستعمروا هذا الشرق ويفتتوه إلى كيانات ضعيفة يسهل السيطرة عليها كما هو اليوم، وانشغل العثمانيون في مهمتهم الدفاعية المتواصلة عن العالم الإسلامي فلم يهتموا بالعديد من الجوانب الحضارية التي كان ينبغي أن تكون من أولويات الدفاع لملاحقة هذه الموجه الاستعمارية وهو أمر أسهم في ضعفهم الحضارى فبدت هوة حضارية كبيرة بين الشرق والغرب فى مراحل الصراع اللاحقة .

كما أسهم الدور العثماني في إبعاد شبح الصراع بين شقي العالم الإسلامي بين الجناح الشيعي ممثلاً في دور الدولة الصفوية وبين الجناح السني الذي كاد يشتعل بفعل الدسائس الغربية التي حاولت أن تجسده تحت طائلة المصالح السياسية والاقتصادية وهو دور يخلو في حقيقته من مقومات تاريخية من الممكن أن تشكل أساساً في الصراع الإسلامي الإسلامي لكن الغرب يسعى دوما لإمكانية إيجادها .